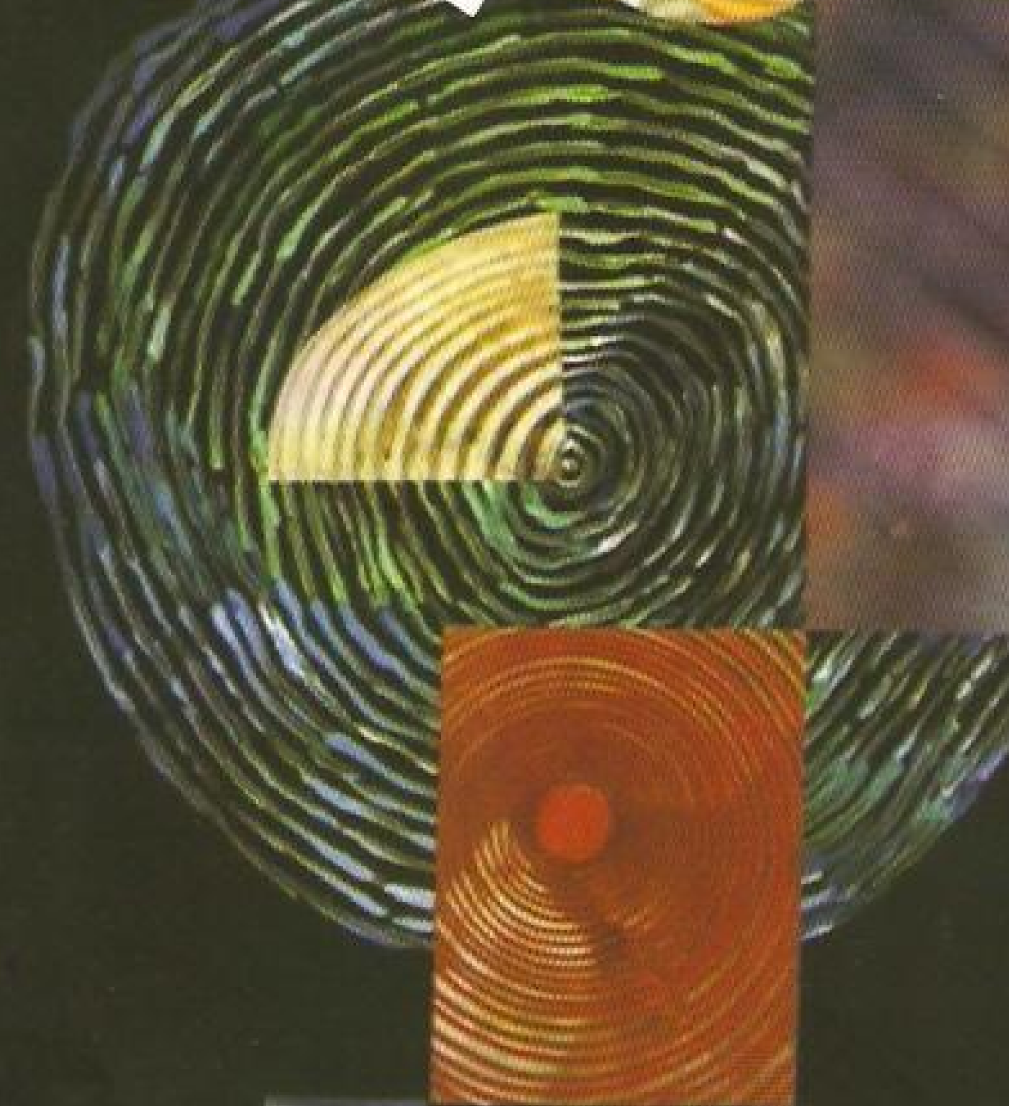
سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية (٤)

ولادة الحركات



محمد أحمد الراشد

سلسلة
استراتيجيات الحركة الحيوية (٤)

ولادة الحركات

د. محمد أحمد الراشد

إحياء فقه الدعوة

سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية

الرسالة الرابعة

ولادة الحركات

رصد لبزوغ اللمعات الأولى وإرهاصات النشوء

ومراقبة لنمو الرجفة التأسيسية

وظروف المزاحمة

وسياق نضوج عمليات التحول

ورؤية آثار الجمال وإيحاءات الأبعاد الهندسية في توليد الحركات

محمد أحمد الراشد



((المعنى التجريدي في لوحة الغلاف))

في البيئة الداكنة العبوسة: تلوح مدارات الاستبشار

ومن خلال زخم الالتفاف تنشأ الحركات المؤثرة

وظاهرة التدوير تكفل التوليد القوي

وقد تسخن الحركة... أو تكون حمراء

لكن يبقى أعلى منها وأجدر... هلال الجمال الإيماني الهادئ

يطل.. فينعكس على الحياة نوره

ويطمئن بعض المجتمع

وتكون السكينة المحور

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الأمة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الرياض : ٠٠٩٦٦٥٥٤٤٨١٩٠٥ - فاكس :٠٠٩٦٦١٢٤٨١٩٠٥

جدة : ٠٠٩٦٦٥٠٠١٥٠٤٠٤ – فاكس : ٠٠٩٦٦٢٦٨١٠٥٧٨

emal:alomh@gawab.com

((الغلاف من فن الراشد))

٤ ولادة الحركات

□□ الحركة الحيوية كلها: إنما تجري بعلم الله وحكمته وقدرته.

وفي تفسير اسم "الرشيد" من أسماء الله الحسنى: أنه: (هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سبيل السداد، من غير إشارة مُشير، ولا تسديد مُسدِّد.)(١).

فهي تدبيرات "تنساق إلى غاية"، وتلك عبارة جامعة تُصوِّرُ حركةً منسابة مسترسلة، هي: "الحركة الحيوية".

ويعضد ذلك قول الله تعالى: "أعطى كلَّ شيء خلْقَه، ثُمَّ هدى" طه/٥٠ قال أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي: (قال المفسرون: معناه: ألهمَ الحيوانات كلَّها إلى منافعها.)(٢).

ومنظر هذا الإلهام حين تراقب الحياة وحركة أهلها هو المنظر العجيب الذي يستوقف كل مراقب ويسترعي انتباهه، ويأسره إلى رؤية حكمة دقيقة في حياة المخلوقات، والتوازن البيئي، بحيث يُضطر حتى الساذج إلى أن يحاول معرفة أسرار الحركة الحيوية، وينشأ عنده فضول علمي عارم يحدوه إلى المشاركة في مبحثها بجملة أسئلة وملاحظات ذاتية.

● هذا "الإلهام" إنما هو أساس، وقد تطور إلى "صنعة تجريبية" تعين الإنسان والحيوان على تمييز مصالحه والاستجابة لتحقيق مراده من خلال الاستفادة من المعطيات المتاحة.

ففي علم النفس يُتداول اصطلاح: "التبصُّر" أو "البصيرة" واحد مدلولاته في حقل التعلُّم: (الإدراك الفاجئ للعلاقات المفيدة بين مختلف العناصر المتواجدة في المحيط)(٣).

ويزعمون أنهم وضعوا لقرد عصا قصيرة، وأخرى أطول، وجعلوا خارج قفصه موزة أبعد من طول الطويلة، فعجز عن إدراكها، فوصل الثنتين، فاستطاع، وتلك هي البصيرة.

ونظرية حركة الحياة حشدت مئات أو ألوف الظواهر والوسائل والمعادلات والقيم أمام من يريد تحريك الحياة، وهي متوفرة في المحيط أو يمكن أن يصطنعها المرء، والمبدع هو من يختار من هذا الحشد الكبير ما يلائم الحال الذي هو عليه، فيسيطر.

● ومن أظهر الإبداعات البشرية في الاستفادة من تنسيق حشد الظواهر الحيوية: قياس المستقبل على الماضي لمعرفة توجهات مسيرة حركة الحياة، فها هنا توليد حركة على وفق مفاد حركة سابقة، وذلك هو "علم التاريخ" الذي يظنه الفرد الذي لا مشروع له أنه مجرد مُتعة ذهنية معرفية، لكنه عند أصحاب المشاريع والغايات: هو طريقةُ فهم من أجل السيطرة.

وتلك هي نظرة قديمة واعية امتلكها المؤرخون الأولون، فمؤرخ مثل "توسيديس" الذي هو أعظم المؤرخين الاغريق بلا استثناء والمتوفى عام ٤٠٠ قبل الميلاد: يقول صراحة في كتابه أنه (قد ألفه، على حد قوله، لكي ينتفع به الراغبون في معرفة ما حدث في الماضي، ولكي يتنبأوا، من طريق هذه المعرفة، بأحداث المستقبل أو يسيطروا عليها.)[٤].

إذاً: ففكرة السيطرة عبر استيعاب المعادلة التاريخية هي فكرة قديمة جداً، ولكن تجد مسلمين من أهل الإصلاح بعد ٢٤٠٠ سنة من ذاك الوعي لا يعرفون استنطاق التاريخ وأهميته في فهم الحاضر وامتلاك المستقبل..!

☐ توالد الحركات ونشوء تيارات التحريك

☐ هذا المقدار الأولي من الفهم: يأذن لنا أن نتوغل في التعرف على أنماط ولادة الحركات ونشوئها، ومن ثمّ كيفية التحكم في كثافتها، وتوليدها عند الحاجة لها بالكم الذي يكفي، فليس صواباً أن نبقى سلبيين ننتظر حركة نغتنم فرصة مرورها لنصطادها ونستعملها لسد حاجاتنا، وإنما علينا أن نبادر إلى صناعتها طالما كان بالإمكان ذلك، بل من شأن الحياة أن لا تبقى راكدة تنتظر أحداً يحركها، وإنما هي تغلي وتفور، فإن تركتَ انت تحريكها: بادر غيرك لتحريكها فيكون السابق وسيد الساحة.

● وأظهر وسائل توليد الحركات: أن تتحرك حركة أولى تأسيسية كل برهة من الزمن قصيرة، فتتولد بصورة ذاتية حركة ثانية منها وثالثة، وتكون سلسلة حركات، فإذا زُوحمتَ وحصل سكون: رجعتَ إلى زناد البدء وصاعق التفجير الأصلي، فتحصل نفضات متتابعات بها ينمو الزَخَم التحريكي الناتج.

وذلك قول الزاهد أبي علي الدقّاق: (قولهم: الحركة بَرَكة: حركات الظواهر توجب بركات السرائر.)[٥].

وهذا تفسير جيد، فإنّ الحركات التي يأمر بها الشرع، من صلاة وسعي إلى المسجد وحج: تنعكس على دواخل النفس في صورة إيجاب وخواطر رحمانية وإبداعات ورؤى تخطيطية وعَزَمات جديدة متولدة من أثر الحركة الظاهرية لم تكن من قبل، وهذا المخزون القلبي يكون طاقة تشغيلية مرة أخرى لحركات ظاهرية، فتستمر المتوالية.

لأن العكس صحيح أيضاً، فإن بركات القلوب تدفع الجوارح إلى حركة وعمل وموقف إيجابي.

وهكذا: من خلال الحركة، والحزن، والارتداد العكسي، وتجديد الصعق: يتوالى تيار من "كَمّات" الحركة، يتعاظم من خلال استمراره فتكون له قوة دافعة على مثال (بسْتن) محرك السيارة (Peston)، وأصل قابلية الارتجاع والتراكم والتوليد هذه منحة ربانية، ولذلك وصفها أنها "بَرَكة"، وهذا من شواهد القَدَر المحرك للحياة.

● وهذا الوصف لولادة زخم وتيار تحريكي من حركة أولى واحدة تأسيسية: يفسح المجال لنا لفهم أن "حركة الحياة" الكبرى هي أيضاً بدورها مظهر لمجموعة زخوم تأثيرية تآلفت وتراصّت وتكتلت.

إذاً: حركة الحياة "تتجزأ"، وتحليلها يُبين أنها زخم مجتمع من مكونات أصغر تمثل عدداً عديداً من الحركات الأحادية المنشأ التي تتجزأ بدورها إلى مكونات أخرى أدق، مثل حركة التاريخ، بكل أنواعه، وحركة المجتمع في فصوله

النفسية وفصول العلاقات البَيْنية وضغوط البيئة، والحركة الفكرية، وارتباطها بالمكونات المعرفية، وبتأثير الإعلام، ومفاد اللغة، وطبعات الأدب، ثم حركة الاقتصاد، وحركة السياسة، في محركات جزئية كثيرة أخرى.

● ثم "التعاكس" تنشأ في ظلاله قوانين الحركة.

فإذا كانت هذه هي محركات الحياة: فإن نقائضها هي كذلك أيضاً، وحقائق المنطق توجب ذلك.

فإذا كان الإيمان يحرك، فنقيضه الكفر يدفع نحو طريق السلب.

وإذا كانت السُنَّة إيجاب، فإن البدعة تهدم، وتحريكها مؤكد، لكنه يشتت.

والجهل له أثر يعاكس العلم.

والهَلَع يمهد للعدو أن يَختَرِق.

وإذا كان التفاوض يفتح طريق تفاهم، فإن الحرب تغلقه وتهدم.

وإذا كان التخطيط يُتيح تناوش الهدف، فإن الارتجال يقطع الأمل.

وإذا كانت القلوب تهدأ في المساجد، فإن الحانات تَضرم في الأفئدة ناراً.

● إلا أن هذه الحركة العكسية ليست حتمية، فقد يطرأ عامل من العوامل يُبطلها. ففي "الفتن": يوشك الردّ أن يكون عسيراً، وأن يعيد الحركة الطائشة منعكسة وفق قانون رد الفعل، لكن أخلاق "الحِلْم" تمنع الاستمرار فيكون التوقف وحقن الدماء وعودة العمال وأهل الحِرَف إلى صنائعهم فيعود الإنتاج بعد إذ قارب الكساد أن يجثم ، وقد اعتذر مشارك في فتنةٍ لمعاوية، فكان مما قال أن الفتنة قد انحسرت ظلماؤها وانكشف غطاؤها، فارتفع العبوس، وثابت النفوس، فتركنا فتنتنا، ولزمنا عِصْمتنا، ومَن يجد مَثاباً: لم يرد الله به عِقاباً.[٦]

فعفا عنه وحلُمَ، ومعنى ذلك أن الحِلم يُبطل الحركة العكسية، وليست هي حتمية.

☐ سرعة النهضة تكفل الطلاقة

• وهي عجلى في دأبها الحياة.

وذلك ما أدهش الشاعر الجزائري محمد براح فقال في نسائم الفجر الصادق:

(ما أسرعَ السيرَ لو تدري؟)

فالحياة لا تتحرك فقط، بل هي تركض.

وحين يتقدم المرء في العمر: يكثر منه أن يسترجع ذكرياته، فيكتشف كم كانت سريعة حياته..!

وهذه الملاحظة لا تقال للاستمتاع بمفادها، ولكن لوعظ الذي يريد أن يحرك الحياة أن يتأهب أيضاً، ويسرع، ليوازي طبيعتها، وإذا أبطأ: تركته.

• والحيوية والنشاط في أول الأمور تدل على الاستمرار والخيرية واستقبال وقت جيد، فهذا من طبائع الحركات والمتحركات، أنها تبدأ بوتيرة ناهضة، وأما الضمور في الأول فعلامة إبطاء، وفي هذا المعنى أمثلة للعرب وأنك في وجه الأمر وإقباله تعرف صلاحه.(٧)

• ومن طبائع الحركة: أنها قد تطول زمناً، ويمتد تأثيرها، وبخاصة إذا تركتْ آثارها على نفس صاحبها أو نفس المنفعل بها، وذلك بسبب صفة الحساسية المفرطة للنفس الإنسانية، واستعدادها لاسترجاع صور الألم بخاصة، ولذلك يحاول المربون تخفيف كل صورة مؤلمة من خلال معاكستها وتثبيت صورة فرح وسعادة.

ولأن الغناء: (يرتاح له القلب، وتهش له النفس، وتهتز الجوارح، وتخفّ الحركات): (كرهوا للطفل أن يُنوَّم على أثر البُكاء، حتى يُرَقَّص ويُطرَّب.)(٨).

وهذه صورة من صور التدافع والتضاد، فالحزن حالة سلبية، وأثناء النوم تتحول ربما إلى اللاشعور، فيكون استمرار الألم، فإذا دفعناها بالضحك والسرور، فإن اللاشعور يوشك أن يسيره الإيجاب، فهي حركة قصيرة لكنها تستطيل وتمتد زمنياً، وإذا تكررت لمدة فقد تتحول إلى صفة لازمة تخرب نفس

ثورو ١٨١٧-١٨٦٢ موعظة، فإنه (يُعد أحد عمالقة عصر النهضة الأميركية. عرف بمقاومته الشديدة للاسترقاق والاستعمار والمجتمع المدني الصناعي القائم على مبدأ الربح. عاش فترة معتزلاً الناس في كوخ أقامه على ضفاف ''بُركة وولون'' بولاية ماساتشوستس. أشهر آثاره كتاب ''وولدن'' أو ''الحياة في الغابات'' عام ١٨٥٤ الذي يُعتَبر اتهاماً لمجتمع مبني على قيم إنسانية خاطئة.)[٩].

واعتراضه على مبدأ أرباح التجارة مردود، لكنه يعني فيما يظهر مظالم الرأسمالية في الربا الفاحش والاحتكارات والتعسف.

إنما هي تجربة عُزلة فشلت، وبقي تيار الحياة سائراً بدونه ولنا في ذلك درس.

● إن الحياة كلها شغل، وإضافة إليها، وتجديد، وتحريك، وعلاقات.

لذلك رصد العلماءُ السلبيَ الذي لا مساهمة له وسَمّوه في اللغة: (التَوّ).

قالوا: (التَوُّ: الفارغ من شُغل الدنيا وشغل الآخرة)[١٠].

فلا هو بصاحب المهنة، ولا هو بالسياسي أو الحربي أو الفكري، ولا هو أيضاً بالذي يجلب للناس الخير من خلال التأله والدعاء، أو الذي ينتصب قدوة في الزهد والتجرد فيراه المسرف فيتوب، وإنما هو (تَوٌّ) عاطل لا تتحرك به الحياة شبراً.

ونهاية المعتزل أن يكون ''تَوّاً''، والنائي يتحدث إلى الأشجار ربما، لكننا نعترض على انحراف المجتمع إذ نحن داخله.

□ التوزيع القدري لأنواع الحركات

● ومن الناس مَن يكون اعتزاله في صورة عدم الاقتراب من المناصب وعالم السياسة، لما فيه من مجازفة، واحتمالات انقلاب الحاكم على أعوانه، وهذه صورة أخرى غير الأولى.

منهم الشاعر كلثوم بن عمرو العتّابي حفيد صاحب المعلقة عمرو بن كلثوم، سمع به هارون الرشيد فأراد تقريبه، وجعله من حاشيته، لكنه أبى وآثر الفقر خوفاً أن يكون مصيره مثل جعفر البرمكي وغيره، وقال مجيباً زوجته التي عاتبته:

أسـرّكِ أنـي نِلـتُ مـا نـال جعفـرٌ

من العيش، أو ما نال يحيى بن خالد؟

وأن أمـير المـؤمنين أغـصّني

مَغـصّهُما بالمُرْهـفاتِ البـوارد؟

دعـيني تجـئني ميتـتي مـطمئنةً

ولم أتجـشم هـول تلـك المـوارد

فـإن رفيعـات الأمـور مـشوبةٌ

بمُـستودعاتٍ في بطـون الأسـاود[11]

والمرهفات السيوف.

يشير إلى أن الأسياد في صدورهم أسرار ورغبات مستودعَة قد تحركهم إلى قتل من يخافون منه، ومَن يتولى المنصب الرفيع يحذَره سيّده، لأنه يخاف من أن يطمح إلى الانقلاب عليه.

فزُهد البعض بالمنصب الرفيع والمحيط السياسي إنما هو حركة حيوية مؤثرة وإن كانت سلبية، وتأثيرها يكون في شكل حرمان الحاكم من كتلة واعية ذات ذكاء ومنطق، لكن هذه الكتلة لا تتعطل، بل تتحول إلى عالم الأدب أو المال أو العلم أو التربية، فتكون حركتها هناك إيجابية منتجة.

وهذه صورة من أسباب "توزيع الحركات" وكفالة القَدَر لهذا التوزيع بما فطر عليه النفوس من اختلاف الهمم والأذواق والطباع.

وفي التاريخ أخبار مجموعات فكرية وسياسية: أقصاها الحاكم، لقلة وعيه وفهمه لطرائق حصول الحركات الحيوية، فتحولت المجموعات إلى التجارة، فتمولت وأصبح لها تأثير لاحق من خلال ثروتها، أو انصرفت إلى الأدب والفكر، فمالت قلوب الناس إليها، وفي هذا نبأ من التوزيع القَدَري لأنواع الحركات، فوق أنه دليل على فشل أساليب الكبت والظلم والانحياز إلى طائفة

دون طائفة، والواهم يطرد أناساً يريدون أن يدخلوا من باب السياسة إلى الحياة مباشرة، فيتسورون ويكون دخولهم من الشّباك ثم إلى السياسة، وقوانين الحركة الحيوية أقوى من قوانين الطوارئ.

ومعنى ذلك أن الأصل في ولادة الحركة هو وجود الطاقة الكافية التي يمكن أن تتحول إلى حركة، وليس هو الاختيار الجازم لنوع الحركة، فإن التأثير هو المقصود، وقد تكون أنواع حصوله عديدة، فيكون اللجوء إلى ما هو ممكن إذا انتفى إمكان نوع آخر، أي أن العلاقة أو المعادلة مبنية على "وجود الطاقة التي تتحول إلى تأثير"، أما الممر النوعي الذي تمر به هذه الطاقة لتنتج التأثير فيمكن أن يتغير وصفه، فمرة هو تأثير علمي فكري، وتارة يكون نفسياً، وأخرى سياسياً، وعندئذ يستطيع حتى الجاهل أن يؤثر بواسطة المال وشراء الذمم وإغراء البعض مادياً للتنفيذ، وهم المرتزقة الذين يُقاتلون نيابة عن غيرهم.

□ التأمل الفكري قادح رئيس لتوليد الحركات

□ لكن "الفكر" هو العامل المتغير الأكثر وروداً في صِيَغ هذه المعادلة.

إن التأمل الفكري هو المحرك الأكبر للحياة، ساعة يشتغل العقل فيقيس ويراجع الحسابات وينقد المنظر الشمولي الذي يراه.

وهو الذي حكَم تصرفات أكثر البشر منذ القديم وقادهم عند الانعطافات المهمة.

وانظر أثر الساعة التأملية الفكرية التي استبدت بالملك العربي النعمان الأكبر الذي بنى قصر الخورنق بالعراق في الجاهلية، واتسعت سطوته، ثم رأى أن الموت يسطو سطوته، فزهد، فلبس المسوح وساح في الأرض على طريقة الرهبان، وهو التحول الذي خلّده عدي بن زيد شعراً فقال:

وتَبَيَّنْ ربُّ الخَوَرنق إذ أسـ

ـرف يوماً، وللهُدى تكفيرُ

فارعوى قَلْبُه فقال: وما غِبـ

ـطةُ حيٍّ إلى الممات يصيرُ؟[١٢]

وشاهِدُ الحركة الحيوية ملاحظة «وللهُدى تفكير»، فهي لمعةُ الفكر الحُر الذي لا يرزح تحت سيطرة: تقود إلى الهداية، بدفع من الفطرة، ولأنه ملك فقد استطاع تجريد تفكيره من المؤثرات الفوقية، فلاح له الحق، فجاراه.

والقصة في زمن الجاهلية، ولا مجال لأحد أن يتململ ليقرر بطلان الرهبنة، وإنما أوردنا القصة لمغزاها.

فأول الحركة الحيوية وجذورها: حركة قلبية وعقلية داخلية.

وهذا يظهر أيضاً في مثل حالة الذي يُستشار، فإن الرأي لا ينبغي أن يظهر سريعاً، بل من بعد تفكير طويل يسيح فيه القلب بعيداً ويرجع ناضجاً، على طريقة الشاعر الذي يقول:

ومن الرجال إذا زكَت أحلامُهمْ

مَن يُستشار إذا استُشير فيطرُقُ

حتى يجول بكل وادٍ قلبُه

فيرى ويعرف ما يقول فينطقُ[١٣]

فهذه حركة داخلية سماها «الجولة في الوديان»، وهي أشبه بواجب الفقيه الذي يجتهد، لا يُسمى رأيُه اجتهاداً إلا إذا استفرغ جهده وطاقته في التعرف على الصواب من خلال تقليب وجوه النظر لمدة، مع شدة الانفعال العقلي والعاطفي بالقضية، وهذه كلها حركات وومضات كامنة مستقرة هي الأصل الذي يُطلق الحركة الظاهرة.

• ثم غرام المرء برأيه ونظره هو من أكبر محركات الحياة، وهي حالة نفسية يكشف عنها قولُ مزاحم العُقيلي:

وددْتُ، على ما كان من شَرَفِ الهوى

وجَهْلِ الأماني: أنَّ ما شِئْتُ يُفْعَلِ

(ما: هاهنا شرط، واسم أن مضمر، تقديره: أنه أي شيء شئتُ يُفعل لي)[١٤].

وهذا إقرار في الظاهر، لكنه تحدٍّ عند التأمل، فهو يمنح جهل الأماني وفلتات الخيال وجموح الرغبات منزلة مساوية في العلو والسمو لمشاعر الوداد، أو إذا فسَّرنا الهوى بالميل إلى الشيء مما هو أبعد من نطاق الحُب: فإنه يكشف عن تنزيله الخواطر المرسَلة العاطفية نفس مستوى القياسات العقلية والمقارنات المنضبطة ومفاد التجربة، ويجعلهما كتلة واحدة يريد إمضاءها، وكأنه يترك للأقدار أن تنتقي وتختار، فتستقر أخيراً على قرار.

وهي هكذا الحياة في جانب منها، ففي الساحة ألف «مُزاحِم» تجيء حقيقةُ اسمه منطبقة على مُسمَّاه، ولكل منهم فَهمٌ خاص يتحمس له و«يشاء أن يفعله ويفعله الناس» فتكون فوضى الرغبات المتعاكسة وتصادم أجزاء المنطق الناصر لكل منها، فتُرجّح المرجحات بعضاً على بعض، وقد تكون المُكنة البلاغية وجودة العرض عامل هذا الترجيح، أو قوة البرهان الناصر، أو تأييد المال وشراء سكوت الخبير فيقعد عن فضح الرأي الفطير، فيتسلل «تحتيٌّ واقعيٌّ» ويغافل «الفوقي المثالي»، فتتحرك الحياة.

• وهكذا: فإن الحركات كما تكون عقلية تنتهج المنطق: تكون قلبية يثيرها الغرام، أو الثأر، وتزخر بزخم العاطفة، حتى لكأنها نار، وهي التي قال فيها الشاعر:

يا مُوقِدَ النار قد أعيَتْ قَوادِحُه

اقْبِس إذا شئتَ من قلبي بمقباسِ[١٥]

أي هذا الذي يقدح فلا يستطيع إضرام النار: أسرع له أن يأخذ قبساً من نار قلب هذا المحب فيضرم بها حطبه.

● وهذا يمنح الفطرة مجالاً للتأثير، لأن أساسها عاطفي.

وفطرة الخلائق كلها متقاربة.

قال ابن إسحاق في كيفية حمل حنّة بمريم عليها السلام: (أنها كانت قد أمسكَ عنها الولد حتى أسنّت، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يزقّ فرخاً له، فتحركت نفسُها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما علمت أنّ في بطنها جنيناً: جعلته نذيرةً لله أن يخدم الكنيسة.)[١٦].

فمنظر الأمومة الطَيرية أثارت فيها معنى الأمومة من جديد، فالفطرة الخلائقية محرك من محركات الحياة يقع كل يوم لألوفٍ من البشر ونحن لا نشعر، ليس في معنى الأمومة والأبوة فقط، بل في قضايا فطرية كثيرة، وقضايا تناسل المخلوقات منها، وهي أظهرها.

● وأحياناً: يتعاظم هذا الاستبداد العاطفي حتى يصل إلى درجة «التوهّم» والاستعداد لقبول المعنى الغامض والدليل المصطنَع الذي لا تشهد له الحقيقة إذا استعمل الواهم عقله.

وذلك أن من أهم شأن النفس الإنسانية: «الخيال» و«الرمز» وإشباع حاجتها من خلال ذلك، والامتلاء، مهما شهد الواقع ببعد الأمر عن الحقيقة، وذلك جزء من الرحمة الإلهية لتسلية الإنسان المحروم والمنهار والمغلوب، فمن خلال «افتراض التحقق» تبدأ النفس تقنع، وتنخدع، وتعود إلى أمل بعد الإحباط، ورجاء بعد يأس.

قال ابن عطية الأندلسي: (رأيتُ في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سُئل عن امرأة مُتْرَفةٍ صنعت لِلُعَبِها عرساً، فذبحت جزوراً، فقال الحسن: لا يحل أكلها، فإنها إنما ذبحت لصنم)[١٧].

أي جَعل الدُّمية اللُّعبة كأنها صنم، وأن الجمل قد ذبحته المرأة تعظيماً للدمية، وهذا ذهاب إلى البُعد البعيد في التأويل والتعليل لم أستحسنه من الحسن البصري، فإن الأمر أقرب، وظاهرٌ أن هذه المرأة إما أن تكون أرادت التوسيع على صديقاتها وجيرانها فاخترعت العرس لمن عندها من الدُّمى، من أجل إطعامهم اللحم،

وجعلت ذلك من باب الطرافة واللهو المباح، وإما أن تكون محرومة من الولد ولم تنجب، وهي ترى صويحباتها يُقمن الأعراس لأولادهن، فاستبد بها الشوق وساقها الحرمان إلى اصطناع هذه الحفلة الوهمية لترطيب جفاف قلبها المشتاق للولد، واستعملت علاجاً نفسياً لعلاج حرمان فطرتها من الذريّة، والقضية واضحة لمن يتأمل، وفيها اكتشاف محرك من محركات الحياة أساسه "التوهم" ومخادعة النفس بامتلاك ما حُرمت منه، وكثيراً ما ينجح هذا العلاج.

وحين كنتُ شاباً في الخمسينات مات ولد شاب، فحزنتْ أمه عليه جداً، وربطت خطاً هاتفياً بقبره، وكانت تخابره، وربما كلّف زوجها أحداً يجيبها، فتتوهم وتغالط نفسها، وكان في ذلك علاج لنكستها النفسية، وما كانت مجنونة، ولكنها كانت في حالة اهتزاز فجنحت إلى الخيال.

● وقد يحصل ما هو أبعد من ذلك "التمثيل الفارغ" لأسوياء النفس أحياناً، مثل فعل بعض الأعراب، فإنهم إذا قُتِلَ لهم قتيل: يرمون "سهم الاعتذار" الذي يسمونه "العقيقة" إذا مالوا إلى قبول أخذ الدية.

(قالت الأعراب: إنّ أصل هذا أن يُقتلَ رجلٌ من القبيلة، فيُطالَب القاتلُ بدمه، فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء القتيل ويعرضون عليه الدية ويسألون العفو عن الدم، فإن كان وَليّه قوياً حَمِيّاً: أبى أخذ الدية، وإن كان ضعيفاً: شاور أهل قبيلته، فيقول للطالبين: إن بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي، فيقول لهم الآخرون: ما علامتكم؟ فيقولون: نأخذ سهماً فنركبه على قوس ثم نرمي به نحو السماء، فإن رجع إلينا مُلطخاً بالدم فقد نُهينا عن أخذ الدية، ولم يرضوا إلا بالقَوَد، وإن رجع نقياً كما صعد: فقد أُمرنا بأخذ الدية، وصالحوا).

قال ابن السكّيت (فما رجع هذا السهمُ قط إلا نقياً، ولكن لهم بهذا عُذرٌ عند جُهالهم.)

وقال شاعر:

(عَقُّوا بسهمٍ ثم قالوا: صالحوا
يا ليتني في القومِ إذ مسحوا اللحى

قال: وعلامة الصُلح مسح اللحى.

قال أبو منصور: وأنشد الشافعي للمتنخِّل الهذلي:

عقُّوا بسهم، ولم يَشعر به أحدٌ
ثم استفاؤوا وقالوا: حبَّذا الوَضَحُ

أخبر أنهم آثروا إبل الدية وألبانها على دم قاتل صاحبهم، والوَضح هاهنا: اللبن.)(١٨).

● وهذه القضية تراها من خلال قصص عرس اللـُعَب والسهم المُخادع قضية سهلة ساذجة، ولكنها في الحقيقة هي الأصل لقضايا كبيرة في العمل الجماعي، ولها صلة بقضية السياسة الوسطية بين العقلانية والعاطفية، الجامعة بينهما، ففي الساحة حزبٌ إسلامي الفكر يقوم بتجريد كلامه السياسي تجريداً تاماً عن العواطف والتربية الروحية، فنما وعيُه، لكن عافه الناس وضمر تأييدهم له، لهذه اليبوسة التي تعمدها، وبمقابله جماعة إسلامية أخرى تدور في مدار العواطف فقط ولا تعرف سياسة ولا فكراً ولا حركة حياةٍ ولا نشورا، فنما عددها، ولكن عريت من تأثير حيوي وفقه سياسي، ولم تنفع صديقاً، ولا نكأت عدواً، في الحين الذي تنتصب فيه دروس "حركة الحياة" واضحة تشير إلى الاعتدال والشمول والوسطية، وبرزت جماعة تمثل المنهجية المتوازنة المراعية لحاجات العقل والقلب، فهي تتقدم واثقة، وعليها مدار الأمر.

وتتفرع عن ذلك قضية التربية والإعلام والخطابة وبرامج القنوات الفضائية، فإن جمهرة من خطباء العاطفة وجدوا حلاوتها، فاسترسلوا، والتف حولهم من لا يريد أن يُجهد ذهنه بتأمل ودراسة وتدقيق، فلبث العقلانيون ومعهم الأنفار،

وقواعد التخطيط السليم وقوانين الحركة الحيوية تدعو هذا إلى صعود، وهذا إلى نزول، وإلى التقاءٍ وجمعٍ ومنهجيةٍ نسبيةٍ.

● بل أزعم، بشيء من الجزم، وأنا الصادق المستوعب لطرائق تحليل حركة الحياة: أن هذا التوازن العقلي-العاطفي: يمثل قضية كبرى في الحياة تتدخل في جميع نواحيها الموضوعية، حتى أنه ليتجاوز محيط الفكر والسياسة ليظهر في حقل الفن.

إن هناك صلة مؤكدة بين الفن والنفس الإنسانية، وقد لاحظ نُقّاد الفن لجوء الفن الرومانتيكي إلى (المبالغة في الحركات وعنفها، بعكس الحركات الكلاسيكية الهادئة الهادفة إلى التأمل.)[١٩].

وكأن ذلك نشأ من التعقّد الذي طرأ على الحياة بعد عصر الآلة والنهضة الصناعية، وزوال الهدوء من كل الحياة لا من لمسات الفن فقط.

ومن ناحية أخرى: لوحظ حصول (تخفيف من حِدّة وقوة الخطوط القديمة الكلاسيكية).

ولأول وهلة يبدو هذا معاكساً للظاهرة الأولى، وليس كذلك، ولكن ضيق الحياة الكلاسيكية وصرامة علومها وموازينها جعلت الخطوط جازمة جادة محدّدة، وسَعة الحياة الصناعية أوجدت شيئاً من الاسترخاء والحرية جعلت الخطوط تتفلت أيضاً وتختصر أشكالها، أو أن القلوب بدأت تقسو، فمال الفنان إلى ترطيبها وتليينها من خلال لين الخط وتقطيعه وإيجاد فجوات فيه.

فهذا نمط من حاجة الحياة العقلية الهندسية إلى مسحة عاطفية تمنح اليبوسة نداوة.

وهذه إشارات إلى أن القضية أشد تعقيداً مما يظن صاحب النظرات التبسيطية للحياة.

وما بين قمة العقل ومهاد العاطفة: تولد الحركات.

☐ تمايز صفات الناس يجعل آثار حركاتهم متمايزة أيضاً

☐ وإنما تولد الحركات متباينة في قوتها وتأثيرها، وحركة القوي قوية، والضعيف يحتاج لإسناد يرجّح حركته الضعيفة، فقد يواتيه إسناد أو يلبث فريداً.

وأصل هذا التوزيع: هوية خاصة لاصقة بكل شخص.

وهي ملاحظة الراجز العربي الحكيم "العجاج" في صدر الإسلام، وقوله:

لا هُـمَّ لا أدري، وأنـتَ الـداري

كُـلُّ امـرئٍ منـكَ علـى مِقْـدارِ[٢٠]

(يريد: اللهمّ، والميم المشدّدة في آخره عوض من ياء النداء، لأن معناه: يا الله.)[٢١].

فكل شخص هو على مِقدار وصِفةٍ تحدّد منزلته وسِعَره ومدى نفاذ قوله، وليس الناس سواسية في الأهلية والطاقة والقدرات وإن كانوا سواسية في الحقوق.

والشاعر هنا يبدأ من إحاطته بكامل حكمة الله تعالى في خلقه، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يفقه شيئاً منها يتمثل في ظاهرة حيوية تجعل كل إنسان "على مقدار" من الأخلاق والذكاء والقوة وإيجابيات النفس أو سلبياتها، فهو في ذلك كأنه كيان مستقل عن غيره يملك من الخصوصيات التي تمنحه "ذاتاً" مغايرة للآخرين، وجاءه ذلك لا بكسبه واختياره وانتقائه تركيبته الخاصة به، بل بتوزيع "قَدَري جبري" لا يملك سيطرة عليه، إلا بمقدار ما يستطيع عقله الممنوح له، وما تتيحه التركيبة النفسية التي تكونت عنده بعد مزاحمة إيجابياتها بسلبيات يصبّها الآخرون المنافسون عليه.

وهذا التزاحم بين "الكيانات الشخصية" غير المتشابهة هو نقطة المنطلق والبداية في فهم حركة الحياة، فهناك تدافع، وعوامل الترجيح عديدة، بل كثيرة، فمنها امتياز بعض على بعض بإيجابيات نفسية متراكبة، من ثقة وتفاؤل وطموح، تتغلب على سلبيات ابتُلي بها آخرون، من حزن وإحباط وقلق، وتكون أنواع

الأخلاق عاملاً مساعداً، ونتائج الذكاء أساس في الصراع، وللصبر والشجاعة تأثير مضاعف، والجماعية تميل بالأمور نحو الحسم، والتخطيط يغلب الارتجال.

فبإرادة الله: تباينت أنواع الناس ومراتبهم في العقل والأخلاق والدين.

وفتىً تلقى أباهُ دونه
وأباً تلقاهُ أعلى وأتمْ
من بنيه، ثم لا يَعْتَلُّ إن
طُلِب المعروفُ منه بالصَّمَمْ
وكذلك الناس -فاعلم- ربُّنا
قَدَّرَ الأخلاقَ فيهم وقَسَمْ(٢٢)

❑ مهارة النفس في الحوار الانطباعي مع البيئة بمنحها الاستعلاء

❑ ولو تقدمنا خطوة أخرى في هذا المضمار الذي يخبرنا باختلاف الحركات الوليدة تبعاً لاختلاف الناس في "مقادير" أخلاقهم: لأدركنا بوضوح أن أحوال "النفس" تكمن وراء ذلك، وأنها سرٌ عجيب، لما فيها من حساسية بالغة، وإرهاف، فكأنها في منزلة قيادية، تأمر الأعضاء فتطيع، وكأن العقل يتبعها ولا يستقل عنها. أو كأنها في منزلة إمارةٍ ومن حقّها الدلال والغنج.

● وهذا هو الذي يجعل "حالة النفس" هي المبتدأ ووحدة القياس عندما نريد معرفة نوع الحركة الحيوية المتوقعة التي تتولد من خلال نشوء ظروف جديدة.

فحالة النفس هي التي تسيطر على الموقف وتوحي بفرحٍ أو حزن، وبتفوّق أو هزيمة.

فصفة السجين واحدة.

لكن سجيناً في الزمن القديم وَصَفَ نفسه فقال:

ولـــي مُـــسْمِعانِ وزمّـــارةٌ

وظِـــلٌ مَديـــدٌ وحِـــصنٌ أمَـــقّ

(قال ثعلب: المسمعان: القيدان، قَيّد بهما، والزمّارة: الساجور. وهذا رجلٌ كان محبوساً في سجن شُيّد بناؤه، وهو مُقيّد مغلول فيه.)[٢٣].

فهو قد أوهمك أنه في ظل مديد، وغِناء، وحصن واسع، إذ هو المحصور الأسير، وذلك من استعلائه وفوقية نفسه الحُرّة.

فتفسير ((النفس)) للأمر هو التفسير، وتوصيفها هو التوصيف، ورُبّ عاشق لحياة العِزّ هو أسعد ألف مرة عند القتل من رِعديد ناكص يلوذ بحضن زوجه.

من هنا فإن مفتاح السيطرة على حركة الحياة إنما هو ((النفس)) وعلمُ قيادتها والتصرف بها وبمعطياتها العظيمة، وإذا وَضَعَتْ جماعة ما ضمن خُطتها معالم واضحة لتربية نفسية يحكمها نظر علمي دقيق ويشرف عليها عدد من أطباء النفس وفريق من أساتذة علم النفس في الجامعات ونخبة من المفكرين الذين توسعوا في الدراسات النفسية واكتشفوا جوانب علم النفس الإسلامي: فإن هذه الجماعة ستكون بعون الله بمأمنٍ من هزّات عديدة تخضّ غيرها، وستستثمر مُعطيات أعضائها بأوفى ما يكون، وتحقق تفوّقاً استراتيجياً على منافسيها، ومن أغرب الملاحظات التي يتوصل لها الناقد للواقع أن هذه المنهجية التربوية في توظيف حقائق علم النفس والطب النفسي في الخطة العامة ما تزال ضعيفة في الصف الإسلامي.

آنذاك سينقطع نمط البكاء على الأطلال، وتزول الشكوى من المؤامرات، وسيفاخر المسلم الحضاري الإبداعي بمشاعر الفرح والرَّفَل ببرودة ظل مديد مهما كان متعرضاً لضيق وحصار ومعاكسات سخيفة من الذين لا يفهمون نظام حركات الحياة، وسيتفوق عليهم، ويقوم بتصدير تفوقه النفسي إلى كثير من الناس، فيستعلون، ويمارسون السيطرة الفوقية على ضحايا الوسوسة التحتية.

● ومثال آخر تكون فيه سَعةُ أفق السماء: البحرَ الذي تسبح فيه النفس لتحيا، فإذا جفّ، بالضّيق: لهثت، كاضطرابها في الماء الضحل.

فهناك تلاؤم وانسجام ينشأ بين الإنسان والبيئة والمحيط، وكذا بين الحيوان وما حوله، ويكون في اللاشعور وفي التصرف التلقائي وانعكاسات النفس الفطرية، كمثل العلاقة السلسة المنسابة الاستراواحية بين الإنسان والحيوان من جهة، والسماء وصفحتها العريضة وخيمتها الزرقاء الوسيعة، من جهة أخرى، فأيما نقضٍ لها وحَجْبٍ وتكدير وتضييق: يؤثر في النفس فوراً بصورة سلبية تثلم الاقتران الوثيق، فيضيق مصدر إلهام النفس الذي يُشعرها بالسعة.

من ذلك ما لاحظه مالك بن خالد الهُذلي في غزالٍ تعرّض لجفلةٍ:

أرَتْهُ من الجرباء في كل موطنٍ

طِباباً، فمثواهُ، النهارَ: المراكدُ

والجرباء هنا: السماء.

والشاعر هنا (يصف حمار وحشٍ خافَ الطِرادَ فلجأ إلى جبلٍ، فصار في بعض شعابه، فهو يرى أفق السماء مستطيلاً) أي (إلى مضيق في الجبل لا يرى فيه إلا طُرّةً من السماء.)

والطباب: المستطيل، أو القطعة.

وعلى هذا فالمراكد: هي أمكنة الاختباء التي يركد فيها، فتؤسر النفس عن انطلاقتها.

وهذا مثل السجين الذي يُحرم منظر الأفق، فوصف الشاعر محنته فقال:

وسدَّ السماءَ السجنُ، إلا طِبابةً

كتُرس المُرامي، مُستَكناً جنوبُها

أي دائمة عليه جوانبها، لا تتبدل.

فالغزالُ (الحمارُ رأى السماء مستطيلة، لأنه في شِعب، والرجل رآها مستديرة، لأنه في السجن)[٢٤].

والاثنان: الغزال والإنسان: لهما نفس حرة واسعة آذاها الضيق، وقد حَدَث مثل هذا لي في سجني، حيث كنتُ ولسنتين لا أرى من السماء إلا بعض قطعة.

أما الدنيوي فينهار.

وأما الأخروي الحُر فتقوم له «قطعة السماء» التي يراها شاهداً على معنى الحرية والانطلاق والرحابة، فمهما صَغُرتْ هذه القطعة فإنها تقوم بتذكيره بما في السماء من معانٍ تفتح القلوب وكل منغلِق، وتثير التأمّل، وتميل بالنفس إلى الهدوء، وتقترب بها من السكينة، لأنها فسيحة الأرجاء، عالية، وذات لون معتدل، وخلال التذكّر يرجع المرء إلى مخزونه الداخلي من هذه الانطباعات التي تراكمت على مَرّ الأيام، فيكون تفسيره لمحنته الطارئة تفسيراً حَسَناً، ويتأول، ويعتقد أمثَلَ المعنيين الواردين إلى خاطره، وأليقهما، ويفترض حكمةً خفية يريدها الله تعالى له، وما يزال يرفق بنفسه حتى يكتال من الثقة ما يكفيه لاجتياز مرحلة الحَرَج، وهذه طريقة في تكثيف ولادة الحركات الحيوية الإيجابية يلجأ إليها المؤمن النبه الواعي كلما حَزَبه أمر وأحاطت به مشكلة.

● وهذه الطريقة السهلة المثمرة يمكن أن تكون طريقة دائمة يتعلمها المؤمن في شأن الحياة كلها، فكما أنه يستنطق السماء ويستحضر مدلولات أوصافها وأجمل معانيها: يستنطق أشياء أخرى أمامه، لتنطبع في دواخل نفسه وفي اللاشعور جملة معانٍ تكميلية يوظفها في جوانب إيجابية شاخصة أمامه يومياً لا يتكلف استطلاعها، ومثال ذلك أن ينظر إلى نصف الغرفة التي يجلس فيها، فسيرى زاوية في سقف الغرفة هي نقطة التقاء الجدران، ومثلها في القعر، وهذه الزوايا هي نقاط توزيع لخطوط، ويستطيع أن يحصي عشرين خطاً عمودياً تكوّنها الجدران وأطراف النوافذ والأبواب والأعمدة وحافات الأثاث، مع عشرينَ خطٍ أفقي مثيل، ويرى مربعات، ومستطيلات، ومثلثات، وربما دوائر، وخطوطاً مائلة.

وأقواس، ومعنى ذلك أنه يرى منظراً حُشدت فيه الأشكال الهندسية بكثافة، ثم لو انتقل إلى الجهة الأخرى لرأى حشداً بترتيب آخر، وكذا لو نظر إلى واجهة بيته، أو بيت الجيران، وأحدنا يرى مئات هذه الحشود الشكلية وهو لا ينتبه، لكنها تقذف في دواخله كل معاني التوازن والتماثل والتكامل والترتيب والاصطفاف والتمايز، وتستقر هذه الموازين الهندسية والجمالية في لاشعوره من دون أن يدري، وتعمل عملها في تنظيم أفكاره ومراقبته للحركات الحيوية، وبذلك تكون البيئة مربية للإنسان المتعامل معها وإن لم يفقه طريقة تربيتها له، وهذه الحصيلة هي التي تسعفه إذا أراد فهم شيء من صفته النظام والتوافق الهندسي، ويقل فهمه إذا كان يعيش خارج المدن، في صحراء أو غابة مثلاً، ولكن يكون له تعويض في صورة موازين جمالية يستوحيها من جمال محيطه، وربما يحوز جوانب من تقويم الجمال تعوز الحضري الذي ترتبت مكنوناته عبر الإيحاءات الهندسية، وكلٌ ميسرٌ للانطلاق من حصيلة قَدَرية من معاني المناظر أتيحت له، وهذا هو السبب في اختلاف أصحاب المهن في المفاهيم الانطباعية والأذواق، وفي ذلك تفسير آخر لمعنى قول الراجز أن كل امرئ على مقدار، وهذه الالتفاتات من دقيق قضايا التربية والتأهيل والتدريب، ولا يدري أكثر الناس من خبرها شيئاً، مع أنهم يعيشونها عملياً، وفهم "محرك الحياة" لهذه الظاهرة يجعله يميل إلى تدريب نفسه وأعوانه على تحليل مناظر محيطه وبيئته، وتكثيف دروسه الانطباعية واستنتاجاته، فتنمو بذلك حصيلته التي يمكن أن تنتقل من نطاق اللاوعي إلى جبهة الوعي المباشر في تكوينه الذاتي، فتزداد مُكنتُه التأثيرية، ويصبح أقدر على توليد الحركات الحيوية الإيجابية، وتتولد عنده بالمران حاسّة انتقائية وهندسة استنساخية تقترب به مرحلتين من السيطرة على الحركة الحيوية، ويسبق الذين ينافسونه ممن يذهلون عن هذه الفنون في فهم المحيط وتدريب النفس من خلال إلقاءات المنظور.

❑ انطلاق الزخوم الاستعلائية من الانطباعات الجمالية

❑ وهذه الحماسة التحليلية إذا استطردت: فإن تطور الرؤية الجمالية إلى محركات حيوية تكون ممكنة قابلة للرصد، ومن ثم قابلة للتوظيف التربوي والتأثير.

وإنه ليأسر قلوبنا ذاك التعاطي الذي كان عند أجدادنا من السلف مع امتيازات المخلوقات وانفراد بعضها بميزة تكون له علامة، من لون أو سبب جمال أو تأثير أو سلوك غريب، فيميل أحدهم إلى البلاغة التشبيهية ليُشبعَها وصفاً، لتنعكس صورتها في النفوس انعكاساً تربوياً يستخرج منها أنواع العواطف والأحاسيس الإيجابية والدوافع المعنوية، مثل جدنا القديم الصحراوي الذي أخذت بمجامع قلبه حُمرة المريخ فراح يتعاطى:

فعند ذاكَ يَطلُعُ المرّيخُ

في الصُبح يحكي لونَهُ زَخيخُ

من شُعلةٍ ساعدها النفيخُ(٢٥)

والزخيخ: بريق النار أو بريق الحرير.

ووجه التربية في منظر المريخ: أنه كرجل صحراوي يوقد ناراً، ليطبخ أو ليدفأ، نعم، وتدفعه حرارة النار إلى حرارة موقف وقتال وفورة وثورة، اقتباساً من منظر لهيبها وحقيقته، ولكن منظر الجمرة المريخية العالية في السماء تكمل له تأثيرات ناره الأرضية، فيعرف أن مسايرة انعكاسات حرارة النار تلك في دواخل نفسه ترفعه في حياته ارتفاع المريخ السامي، ويُصبح يؤمن بالاستعلاء، وتتطور الخلجة القلبية عنده إلى منهجية تربوية حيوية، فيلزم الجهاد، فتتحرك الحياة، وتتطور الرؤية الجمالية إلى محرك.

ومن غرائب ما جرى لي من الموافقات القَدَرية: أني قرأتُ في الجريدة يوم ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٥ أنه في ذلك اليوم ليلاً سيكون المريخ أقرب ما يكون إلى الأرض، وأنه لن يعود إلى مثل تلك النقطة وشدة اللمعان إلا بعد خمس عشرة سنة، فخرجت إلى حديقة الدار وأمعنتُ النظر فيه ورأيت حُمرته، ورجعت إلى عملي

اليومي في تدوين أفكاري وتقليب صفحات الكتب، وإذا بالرجز الآنف الذكر في التغزل بجمال حمرة المريخ أول شيء يقع عليه نظري، من غير تكلّف ولا بحث، ودونت الخاطرة التي جاءتني في أن الرائي له يُساق إلى مثل سموّه واستعلائه إذا أوقدت النارُ فيه معنى التحدي ولهيب العزة، وعجبتُ لهذه الموافقة.

☐ تسارع الزخوم عبر الحركتين التدويرية والتكويرية

☐ وثمة حركات نافضة أخرى يمكننا رصد ولادتها من خلال الميكانيك الساكن، أو الميكانيك نصف الساكن، عندما يتخذ شكل ارتباط بمحور مركزي، فتكون الحركة الدائرية، فهي حركة مطلقة، لدأبها المستمر، وهي ساكنة في نفس الوقت، لالتزامها المحور، فيتولد وصف نصف الساكن.

وأبدع حركة حيوية على الإطلاق وأكثرها جمالاً وأسراً لقلوب الناظرين: منظر الفرس حين تعدو مع مُهرها الوليد في حركة دائرية، تعلمه النشاط، وإفصاح الفطرة في هذا المنظر عميق جداً، وقد أودع مخرج فلم عمر الشريف "دكتور زيفاكو" هذا المنظر في فلمه، فأوحى بمعنى يعدل القصة.

هذا المنظر الخالد هو همزة الوصل وجسر العبور من تأثيرات الرمزية الجمالية إلى فهم تأثيرات الحركات الهندسية التدويرية والتكويرية في الحياة.

● وهذه الظاهرة التدويرية والتكويرية ومعطياتها في تسهيل الحركة والسيطرة: استثمرتها الهندسة الميكانيكية استثماراً أوسع، فقامت كل تصاميم الآلات والمكائن أساساً على وضع منظومة متكاملة من الدواليب الدائرية والتروس المسننة والعجلات، والربط بينها، ونقل الحركة من بعضها إلى بعض، وجعلها بأقطار مختلفة القياسات، ومع توازي المحاور وتقاطعها وتوالي درجاتها، فينتج من توليد الحركة وتعاظمها وتبادلها وتوقيتاتها تحريك دائب ومنتظم وموزون يأتي بعجائب ويضخم أصل الطاقة عبر ظاهرة العزوم والأذرع، والصناعة كلها في العصر الحديث قائمة على هذا الاستعمال الذكي للحركة الدائرية، وكل هذه

الهندسة إنما تراكبت على حقيقة اختراع "العجلة" قبل ألوف السنين في الحضارات الآشورية والفرعونية، ولولا تلك الومضة من الذكاء العتيق لما قامت صناعة اليوم المعقدة الواسعة، ولا تحسبن ذلك سهلاً، أو هو بديهة حتمية، بل هو قدر رباني في سلسلة ظواهر تحريك الحياة جعل الله له تلك اللمعة الإنسانية القديمة التي أنتجت اختراع العجلة سبباً جسّدها وأتاحها، وإلا فإن جمهرة من البشر أخرى من الهنود الحمر في أميركا لم تنقدح تلك اللمحة الذكائية في عقل أحد منهم على مدى ألوف السنين، ولبثوا يجهلون الحركة الدائرية ولا يعرفون العجلات، حتى أتاهم المستكشف الأوروبي فتعلموا منه، بل عسر عليهم التقليد وحرموا أنفسهم من فوائدها بعد علمهم بها دهراً.

● ولكي تستقر الحركة الدائرية فإنه يلزمها محور، والبكرة التي تدور يلزمها ثقب في وسطها، أو خَرق، أو الدولاب الذي يدور من شأنه أن يخرج منه نتوء من كل جهة يستقران في فجوتين ثابتتين على الجانبين، وهذه الفجوة تسمى في لغة العرب "القَبُ" وكذلك ثقب البكرة يسمى بمثل ذلك، وجمعه "أقبُ"، وكان الدولاب يسمى "المَحالَة" أو هي الجسم الثابت الذي فيه الثقب، ففي لسان العرب (والقَبُ: الثقب الذي يجري فيه المِحْوَرُ من المَحالَة. وقيل: القب: الخرقُ الذي وسط البكرة).

وقال الأصمعي والجوهري وغيرهما: أن الثقب الذي تدور فيه البكرة إذا كان من حديد فإنه يُسمى "الخُطاف"، فإن كان من خشب فهو "القَعْو".

والمحور: الحديدة التي تدور عليها البكرة.[٢٦]

● إن الظاهرة التدويرية في الحركات تكشف السر الذي غَرَسَ في اللاشعور الإنساني إمكانية إتاحة الفرصة للفرد في أن يستريح في الليل وقبله عند الأصيل وبعده عند الصباح من تعب العمل في النهار والكد المهني والوظيفي بأن يلجأ إلى مسكن وبيت فيه غرف مربعة ومستطيلة وذات زوايا وأركان، وليست دائرية، فهذه إنما هي ملاحظة معمارية فطرية تعتمد على حقائق نفسية، وذلك لأن عمل النهار

كله تحرك، فيلزم لتوفير الراحة إبطاءٌ وكسرٌ لاستمرارية الحركة، وإنما يأتي ذلك من وجود هذه الزوايا، ويتأكد ذلك بإيحاء الألوان الهادئة في دواخل البيوت، وبالسكون الآتي من حَجب الضوضاء، وأيضاً: من حجب مناظر الأجسام المتحركة التي تديم الشعور الداخلي في دواخل الأفراد بوجود الحركة، فهذه كلها أسرار نفسية لا ينتبه لها من لا يدرس "حركة الحياة" ويحاول تحليل قوانينها وظواهرها، فانتبه وافهم كوامن المعاني من أجل أن تسيطر عليها وتضعها في خدمتك.

● وقد أدرك جيل المسلمين الأول بعض فقه الحركة التدويرية المباركة هذه، وفهموها من خلال نقل القوة البدنية وتخزينها عبر ظاهرة الميكانيك الساكن في "حَبْل" مفتول يُستعان به على أداء المهمات الصعبة وحمل الأثقال وشد الأشرعة، فقالوا في وصفه وتعليل ادخاره للقوة التي يمنحها الفاتل له: (الحبل المَشْزُور: المفتول، وهو الذي يُفتل مما يلي اليسار، وهو أشد لفتله).

(قال الأصمعي: المشزور: المفتول إلى فوق.) (وقيل: هو أن يبدأ الفاتل من خارج إلى فوق.) (وفي الصحاح: والشزر من الفتل: ما كان إلى فوق، خلاف دور المِغْزَل.)[٢٧].

ولم أفهم جيداً كيف يكون الفتل إلى يسار أشد من اليمين، ومعاني بقية الكلام، مع كلام واضح عن تأثير فيزياوي يؤدي إلى حالة ميكانيكية مستقرة، حتى تأملت فرأيت أن المعنى: أنّ الفتل إلى اليمين تكون الكف اليسرى هي الدافعة، وفيها ضعف عند أغلب الناس، بينما الفتل إلى اليسار تكون الكف اليمنى هي الدافعة، وهي أقوى عند معظم الناس، فيكون الفتل أشد.

□ مُحركُ الحياةِ يُربي الناسَ على التدويرية والتكويرية

□ وهذا ما جعل الطبيب والفنان التشكيلي العراقي د. قتيبة الشيخ نوري يبدي حساسية فلسفية وفنية إزاء الدائرة، ونظر لها نظرة فلسفية دعته أن يقول أن (الحياة دائرة عظيمة ذات محيط لامرئي، مركزها الإنسان، تزدحم بما لا نهاية من

الأشكال الدائرية، لحد الهلوسة والهوس) والمعنى الأول صحيح، ولكن المبالغة الوصفية خطأ، إذ يقول الله تعالى: "إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَر"، أي بمقدار وميزان وحكمة، ولا يمنع ذلك أن نستمر في رصده للتدوير في المخلوقات، فهو يرى ذلك في (القمر والشمس والكواكب والمجال البصري، وحدقات العيون وقنوات السمع، وكريات الدم ونويات الحجيرات، وقطرات الندى، وتلألؤ المياه، والدواليب واللوالب، وأقواس النصر، وأقراص الطب) (كلها دوائر تدور)[٢٨] ونسي في السياق خلق كل الفواكه كروية أو بيضوية، وكل بيض الطيور، والذرّة المتصاعدة في عدد مداراتها الإلكترونية والتي هي أصل تكوين العناصر، لكنه انتبه إلى احتواء (الحرف العربي الكثير من الرؤيا الدائرية والانسياب القوسي.).

ولذلك بنى قتيبة مذهبه الفني على الدوائر والأقواس، وملاحظته تجيء من جملة رصدٍ رَصَده كثيرون رأوا خلاله كثافة التدوير في المخلوقات، ولكنهم وهو معهم: لم ينتبهوا إلى تمام المعنى العظيم في هذه الهندسة التكويرية والدائرية، ذلك أن هذه الهندسة ومعادلاتها الرياضية تتيح مضاعفة للحسابات، بحيث أن مضاعفة قطر الكرة يضاعف حجمها ثمان مرات، في توالٍ قافزٍ بالحجم بشكل يولد حركة ذات تسارع وليس مجرد تصاعد طردي هادئ، ومن ثم ترتبط الهندسة الكروية بنظرية "حركة الجهاد"، فليس هو الشكل فقط يكون دائرياً وكروياً وقطوعاً منهما مكافئة وناقصة، وإنما •توليد حركة من خلال التوسع، وأبرع من ذلك: •السيطرة على الحركة السريعة من خلال المحور الرابط، فتكون ظاهرة الطرد المركزي مثلاً، بينما الحركة الحرة يكون فيها انفلات، ولو أردنا موازاة مساره الطويل لصرفنا أضعاف أصل الطاقة التي نجمعها من هيئة التحرك، بفعل الجاذبيات، وهذه الملاحظات تمدنا بتوجه فلسفي نشتقه منها، نجعلها أصلاً في التركيب المعماري والتصميمي وتكوين الأشكال، بما يتيح مجاراة للشكل السائد في الخلق، ثم نجعله أساساً في العلاقات، من خلال المِفصل والمحور والارتباط بمركز، بما يتيح السيطرة وتقليل صرف الطاقة •ثم تعجيل الحركة عبر المتواليات الهندسية الدائرية والكروية.

وهذه المعطيات الثلاثة بمجموعها يمكن أن نعدها تطويراً يتقدم به العقل الإبداعي لحقيقة وجود "حركة حيوية"، فهو ينميها من طورها البسيط إلى التعقيد والتعجيل والضبط.

وأصل كل ذلك: إعمال التجانس مع الخلق وحقائق الحياة، وعند إمعان النظر والتعمق في التأمل يمكننا أن نكتشف سلسلة من المعطيات فوق هذه الثلاثة تتيحها فكرة التجانس، وبها تكون تفاعلاتنا مع حركة الحياة أدق وأصوب، وتتوفر بها لنا طاقة وقدرة سيطرة أقوى.

● من مثل ذلك: ما يتيحه الشكل الكروي من توزيع الضغط الواقع عليه بتكافؤ وتساوٍ في كل الاتجاهات، و تبديده على السطح الكروي، وهذه قابلية تمنحنا وضعاً أسلم في الحروب، والإدارة، وعموم عمليات السيطرة، وعند التعرض للمحن والفتن الجماعية التي تقع على جماعة الدعوة أو على الأمة، ويكون ذلك من خلال عدم الاستطراد في الأفقية والطولية والعمودية في التكوينات الإدارية مثلاً، ومنظومات العمل والتشكيلات، بل الاستفادة من ظاهرة المركزية والمحور القريب، والانطلاق منها في التخطيط، وتحديد المسارات الدائرية، والضمّ، أو توالي المسارات هذه حسب أقطار دوائر تتسع، فيكون بعضها داخل بعض، أو دوائر مستقلة تتماس محيطاتها في نقاط يجري من خلالها انتقال التأثير والطاقة، وهذه الأشكال كلها قام عليها الفن الإداري والأداء الحربي والتوزيع التنظيمي، ويمارسها الدعاة والناس، ولكن من دون أن يفقهوا جذر ذلك وأسباب هذه الظاهرة التي فرضتها الفطرة ومنحتها خواطر التجانس مع حقائق الحياة سبباً قوياً للأخذ بها، وصارت قناعات في اللاشعور، ثم يأتي التحليل والنظر الفلسفي ليشرحها، لتزيد القناعة بها، ليكون مزيد اشتقاق منها ومزيد تجانس، والتخطيط الإسلامي مطالب بأن يتوافق مع هذا النمط من الحركة الحيوية الدائرية والكروية.

● والعكس أيضاً، وهو زخم انتقال انفجار المركز نحو نقاط السطح الكروي كلها، واستمرار الحركة في كل الاتجاهات حتى التلاشي في المكان البعيد، فهذا من معطيات الكروية، وأصل خلق السماوات والأرض إنما يقوم على هذه النظرية في الانفجار الكوني المستمر المتوسع الدائب في التمدد، والمخطط السياسي والحربي والاقتصادي قد يرى حبس الطاقات وتركيزها وحشدها وتكثيفها وإطلاقها مرة واحدة أجدى من تنجيمها وتقسيطها وتصديرها بدفعات صغيرة، وهذا التدبير تجانس مع التكويرية التي بنى الله عليها الخلق.

● والزاوية في المربع والمستطيل تدعو إلى تباطؤ عند الاستدارة، وتقليل السرعة لإتاحة مجال للاستدارة، وتلك عرقلة، وهدر للطاقة، لاحتياج الأمر إلى تعجيل جديد يستأنف زخم الانطلاق، بينما الحركة الدائرية دائبة، فيها تسريع واستثمار لكل مستوى سرعة يتم التوصل إليه للانتقال إلى مستوى آخر في السرعة أكبر.

● وبذلك تكون المعطيات ستة، فيها شواهد على صحة نظرية التجانس مع حقائق الحياة.

□ وهذا يوجب بالتالي تربية الناس على التدويرية وغرسها في لا شعورهم عبر المنظر التربوي، لا في الرسم فقط، كما هو مذهب قتيبة الشيخ نوري، بل في ما أشار إليه هو أيضاً من استلهام العين والجيم والحاء وغيرها من الحروف العربية المدورة، وترجيح المذهب المعماري الإسلامي الذي فيه الأقواس والقباب والطاقات والأهلة، ثم ما لم يشر إليه وذهبتُ إليه من فلسفة التجانس مع حركة الحياة وحقائق الخلق، واستثمار حقائقها في المركزية والمحيطية والانفجارية والتوزيعية في التخطيط والعمل السياسي والاقتصادي والحربي.

● ويزعم الذي يحاورنا أن المربعات والتشكيلات الزخرفية لها إيحاء أيضاً، وذلك صحيح، لكنه إيحاء بمعنى الحشد إذا تكررت، أو يكون لها أثر توزيعي، وأما التدوير والتكوير فإنه يوحي باستمرار الحركة، فتتولد حركات ناتجة من

شعور الاستمرارية، فالانطباع التدويري يحفّز النفس من حيث لا تشعر على عدم الركون إلى السكون، ومباشرة فعل شيء، وله إغراء يتصاعد مع سرعة الدوران، فتولد الحركات و تمضي الحياة قُدُماً.

● لذلك: فإن المربي المستوعب لملاحظات فنّان التدوير قتيبة: يميل إلى إثارة نفوس تلامذته لتوليد الحركات من خلال لفت انتباههم إلى الأشكال الدائرية والكروية الطبيعية التي تتضمنها الصور الجزئية للحياة ومناظر المخلوقات والتشكيلات الهندسية في آثار الحضارات والرصد العلمي، لكنه لا يكتفي بذلك، ولا يقنع باستثمار الأشكال الموجودة، وإنما يعمد إلى تشغيل جمهرة من مريدي تحريك الحياة من معاونيه وأقرانه في عملية واسعة لإنتاج أشكال فنية جمالية غنية بالتدوير والتكوير المودع في لوحات رسم وفي نُصُب وجبهات وتكوينات معمارية، كي يتكون تيار دافع نحو توليد الحركات، فإذا استعدت النفوس ورَجَفَتْ وأَقْلَقَتْ واهتزت وتذبذبت وأخذت وضع التهيؤ لإرسال النبضات وارتفع لديها مؤشر الاستفزاز والضرب في أرض الحياة: ضبطها بإيحاءات من نوع آخر تجعل الحركات الوشيكة الولادة إيجابية ووفق ما يريد وبما يناسب خدمة قضيته، وذلك فن آخر من فنون السيطرة له قواعده.

فافهم الحياة أيها المسلم التخطيطي... فقد طال زمن الدَوَران الفلتان.!

---

(١) لسان العرب ١/ ١١٦٩

(٢) تفسير ابن عطية ١/ ١١٧

(٣)(٤) موسوعة المورد ٥/ ١٩٣، ٩/ ٢١٠

(٥) الرسالة القُشيرية / ٨١

(٦) الشهب اللامعة للمالقي / ١٠٩

(٧) لسان العرب ١/ ٩٨

(٨) العقد الفريد ٦/ ٤

(٩) موسوعة المورد ٩/ ٢٠٦

(١٠) (١١) (١٢) لسان العرب ١/ ٣٣٩/ ١٩٠/ ٨٢٣

(١٣) روضة العقلاء لابن حبان/ ١٩٣

(١٤) لسان العرب ١/ ٣١٦

(١٥) العقد الفريد ٦/ ٨١

(١٦) (١٧) تفسير ابن عطية ٣/ ٨٦، ٢/ ٧٠

(١٨) لسان العرب ٢/ ٨٤٤

(١٩) علم عناصر الفن لفرج عبّو ١/ ٥٢

(٢٠) (٢١) لسان العرب ١/ ٩٧٥ ، ٣/ ٤٠٥

(٢٢) روضة العقلاء/ ١٧٥

(٢٣) (٢٤) (٢٥) لسان العرب ٣/ ٥١٣، ٢/ ٥٦٥، ٢/ ١٧

(٢٦) (٢٧) لسان العرب ٣/ ٣/ ١٣٤، ٢/ ٣١٠

(٢٨) كتاب "الفن العراقي المعاصر"/ ٢١٢ الصادر عن وزارة الإعلام العراقية.

هذا الرصد لحركات الحياة

- رسائل إبداعية في فقه التخطيط وفلسفته ومَنطِقه العقلي.
- وتحليل إيماني.. وعملي.. وجمالي.. لمنظر الحياة الشامل.
- وإحصاء للنبضات التحريكية... والومضات الفكرية التي تقود .
- مع بيان الأصول المعنوية والجذور النفسية لأنواع الخلجات والمواقف .
- وكشف العلاقات بين التصرفات والأفعال وردودها .
- وأشكال التحديات الحيوية والمنافسات بين الفرقاء .
- في محاولة لاكتشاف المعادلات التي توجّه الحياة . . .
- وتعيين نسقات الأسباب المؤثرة والمعاني المتداخلة .
- ورسم صورة فسيفسائية شاملة للحياة من خلال صورها الجزئية .
- وإيراد كل ذلك بأسلوب بليغ، عبر استعراض إشارات الشعراء، وفحوى التاريخ، وشواهد العلم، وأحوال المخلوقات، وتجارب البشر، ومدلولات اللغة، قواعد الاستنتاج .
- والغاية : تعليم كيفية السيطرة على هذه الحركة الحيوية العاصفة .
- و((بطل)) هذه الحركة الحيوية الذي يراد له أن يستفيد منها ويدرسها ويحاول تذليل حقائقها وقواها ومعادلاتها لمصلحته هو ((مسلم مثالي)) يتسمى حسب السياق الموضوعي الذي يرد وصفه فيه بأسماء عديدة متقاربة المعنى . . .
- فهو ((المسلم العصري)) في أغلب الأحيان، أو ((المتصدي الذكي)) . .
- وربما كان هو ((المسلم التخطيطي)) أو ((المنهجي العلمي)) أو ((رائد التمكين)) . .
- أو ((المؤمن الإبداعي)) أو ((المسلم الواعي)) أو ((الوسطي الموزون)) . .
- وربما كان هو ((المسلم الحضاري)) الذي ينظر بعين المعرفيات كلها . .
- فكل هؤلاء العشرة : شخص واحد، زكت نواياه، وأخذ يدأب في الإصلاح، ويفتش عن سبيل تأثير أوفى يُعزّ الله به عباده الصالحين، وإنما تنوعت ألقابُه تماشيا مع دلالات السرد والشرح .
- والحر تكفيه . . . الإشارة . .

دار الأمة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية
مكتب الرياض ج/ 9660554481905+
فاكس / 96612481905+
مكتب جدة ج/ 9660500150404+
فاكس / 96626810578+